

الوجود المادية، تأخذ شكلاً أكثر صفلاً، فتستبدل بنظرية الخلق من العدم نظريات أخرى كالفيض، أو التطور، أو النشوء والارتقاء، أو سلسلة الوجود، أو القول بقدم العالم، وكلها نظريات تهدف إلى إنكار المرجعية المتجاوزة. فهي تفترض تساوي الإله والمادة، فهو لا يتجاوزها ولا يتعالى عليها؛ إذ إن المسافة بين الخالق والمخلوق قد مُحيت وتم اختزالها تماماً. ورغم التركيبة النسبية لهذه الرؤية (بالقياس لنظريات الخلق الحلولية)، فإن ثمة إichاءات جنسية قوية في نظريات الفيض يربطها بالنظريات البدائية، كما أن النظريات الأخرى تدل على النزعة الرحمية نحو الالتصاق الكامل بالمصدر والتوحد معه والذوبان فيه. فترابط السبب بالنتيجة وامتزاجهما، على سبيل المثال، يشبه تماماً امتزاج الدال بالمدلول، والذات بالموضوع، والإنسان بالطبيعة، والخالق بالمخلوق، واختفاء المسافة بينهما.

٢- يلاحظ استمرار بروز الجنس كصورة مجازية في الفلسفة الحديثة، خصوصاً في فلسفة ما بعد الحداثة. وقد شبه ليوتار العلاقة المعرفية بين الإنسان والواقع بعلاقة الرجل الساذج بالمرأة اللعوب: يظن أنه أمسك بها، ولكنها تُفلت منه دائماً. ويرى كلٌّ من نيتشه وبارت ودريدا أن تحطيمهم المقولات العقلية واللغوية هو عملية ذات طابع جنسي: ذوبان وسيولة، ومن ثم فهي جميعاً فلسفات تعني انتصار الموضوع (الطبيعة/المادة) على الذات الإنسانية المركبة (إذا شئنا الدقة)، أو ذوبان الذات في الموضوع واختفاءهما. وقد شبه فشل الإنسان في التحكم في لغته بفشل الإنسان في التحكم في دوافعه الغريزية.

٣- ثم نأتي إلى النقد الأدبي، الذي يُعد من أهم مراكز التفكير الفلسفي في الغرب، فنجد أن الجنس والرغبة قد اكتسحا النظرية الأدبية تماماً. وتذهب النظرية النقدية المتمركزة حول الأنثى إلى أن النظرية في حد ذاتها ذكورية (حالة صلابة، والصلابة مرتبطة بالتجاوز والمرجعية المتجاوزة)، والمطلوب هو حالة سيولة أنثوية بغير تنظير ولا عقل ولا تجاوز، نظرية تصدر عن المرجعية المادية الكامنة،